

النفي والتغريب بالمغرب الأوسط بين القرنين 4-6هـ / 10-12م

قراءة في الأسباب والتداعيات

Exile and alienation in the middle Maghreb between the 4-6 AH / 10-12 CE centuries, A reading of the reasons and implications

د. البشير بوقاعدة¹

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

bougaadabachir@yahoo.com

تاريخ الوصول 2020/10/07 القبول 2021/01/06 النشر على الخط 2021/09/30

Received 07/10/2020 Accepted 06/01/2021 Published online 30/09/2021

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الإجابة على جملة من التساؤلات، تتعلق بطبيعة الأسباب التي دفعت بالقيادة السياسية في بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (10-12م) إلى نخب سبيل أعمال النفي والتغريب والتهجير الفردي والجماعي كنمط من أنماط العقوبة ولغة من لغات التأديب، وأبرز مظاهر تلك العقوبة وصنوفها، وطبيعة الأشخاص أو العناصر الذين شملتهم تلك العقوبة وسلطت في حقهم، ومكانتهم في سلم التراتبية الاجتماعية. هذا من زاوية، ومن زاوية ثانية، تتصدى بالدراسة لأبرز مخلفات عمليات النفي والتغريب على حياة الساكنة بالمجال والحقبة الزمنية الخاصة بالدراسة السياسية والاجتماعية والنفسية، سواء رجال الحكم والبلاط، أو فئة النخبة العلمية، أو الرعية بشكل عام، مع التعرّيج على تأثيراتها على مسار علاقة السلطة بالرعية، وعلى الحياة الحضارية للمجال الخاضع للدراسة. وكان من أبرز ما تمّ تسجيله على ضوءها: تصدّر العامل السياسي قائمة مسببات عملية النفي والتغريب بالمغرب الأوسط، واحتلال منطقة بجاية مركز صدارة حواضر المغرب الأوسط المستقطبة للنخب العلمية التي تمّ تغريبها عن بلدها.

الكلمات المتاحة: النفي، التغريب، المغرب الأوسط، الصراع السياسي، العقوبة.

Abstract:

This research paper attempts to answer a couple of questions related to the nature of the reasons that led the political leadership, in the middle Maghreb during the fourth and sixth centuries AH (10-12 CE), to follow the path of exile, alienation, and individual and mass displacement as a form of punishment and a disciplinary language, as it also deals with the most prominent manifestations and forms of this punishment and the nature of the persons or elements who have been punished, and their position in the social hierarchy. On the other hand, it addresses the study of the most acute effects of exile and alienation on the life of the inhabitant in the field and the time period of political, social and psychological study, be it the rulers and nobles, the scientific elite, or nationals in general, including with regard to its effects on the relationship between authorities and nationals, and the civilized life of the area under study..

Keywords: exile; alienation; Middle Maghreb; political conflict; punishment.

1. المقدمة:

تندرج هذه الدراسة التي تتناول مظاهر النفي والتغريب بالمغرب الأوسط وتداعياتها على النسيج الاجتماعي، في إطار الاهتمام بألوان العقوبة والتأديب ومظاهر التعنيف المُمارَسة من لدن السلطة ضدّ مخالفيها في الرأي والموقف، ومناهضيها في الحكم والسياسة، لاسيّما ضمن ظاهرة العنف التي أفرزتها حروب العصر الوسيط ومظاهر التعدي التي مارسها المشرفون عليها في حقّ الساكنة، وسلطان العقاب الذي انتهجوه في مساعيهم لبلوغ مآربهم السياسية وطموحاتهم التوسّعية.

وتنحصر الإشكالية التي تروم معالجتها هذه الورقة البحثية بشكل أساس في دراسة أسباب وانعكاسات عمليات النفي والتغريب والتهجير التي سلّطت في حقّ الساكنة بالمغرب الأوسط بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (10-12م) أفراداً أو جماعات ورجال حكم أو رعية، كنتيجة من نتائج الحرب التي عايشتها، أو في إطار جهد السلطة لمعالجة أي خلل يشوب علاقتها برعيّتها، أو يضّرّ سيادتها من بعضها، أو يمسّ أمن الرعية ويهدّد استقرارها. وهي بذلك تحاول الإجابة عن التساؤلات التالية: فيما تتحلّى أبرز مسببات عمليات النفي والتغريب والتهجير التي مُورست في حقّ الأفراد والجماعات بالمغرب الأوسط؟ وما هي أبرز مساراتها ووجهاتها (المنطقة المَنفي منها والمُنقى إليها)؟ وما حجم التداعيات التي خلّفتها على حياة من كان ضحيّتها وعلى حضارة المنطقة؟ وإلى أي حدّ ساهم عقاب النفي والتغريب الفردي أو الجماعي في تعميق جرح معاناة الرعية من مخلفات الحرب إن كان نتيجة من نتائجها؟ وما مدى مساهمة هذا الصنف من التأديب في زعزعة الروابط الاجتماعية-الأسرية بمجال المغرب الأوسط؟ وما تأثيرات ذلك على حبل العلاقة الواصل بين السلطة بالرعية؟

وتهدف الدراسة بشكل مركّز وعلى كاهل تلك الاشكالية إلى تحديد طبيعة العلاقة بين الغالب والمغلوب في خضم مظاهر التنافس السياسي والصراع العسكري التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط خلال حقبة الدراسة، سواء كانت أطراف الصراع داخلية تستظل تحت سقف سلطة واحدة شأن جهود الضرب على يد المتمرّدين عليها، أو كانت خارجية في ظل جهود المدافعة عن مجالها ضدّ صنوف الاعتداء الأجنبي على اختلاف أشكاله وتباين قواه، أو في مساعي تغذية مشاريعها التوسعية على حساب الآخر. كما تكمن في محاولة صاحبها رصد صورة عن واقع العقاب الجماعي الذي تسلّطه القوى العسكرية على عناصر الطرف المهزوم ضمن نتائج فصول حربها، وجهود إعادة التوزيع السكاني وسياسة التعمير بواسطة الآخر.

أمّا بشأن أهمية هذه الدراسة، فتكمن في كونها ترسم صورة عن واقع المعاناة الذي رزحت تحت سقفه ساكنة المغرب الأوسط زمن الحرب وظرفية الصراع على كاهل صنف عقابي يعتمد سبيل التغريب والتهجير والنفي مادة تأديبية تعبّر عن نشوة الانتصار، وتُترجم لعنة غضب القيادة العسكرية على عناصر الخصم حتى وإن لم يكن سببا في الحرب ولا طرفا فيها. بالإضافة إلى كونها تُجلّي جانبا من صور العنف الممارس في حق الرعية من لدن المشرفين على الحرب والقائمين عليها، وصنوف الاعتداء على الكيان البشري تحت ذرائع لا تحوز في البعض من الأحيان صفة المشروعية لتبرير ذلك الصنيع وتعليقه.

2. مظاهر تغريب رجال الحكم والسياسة:

تباينت الأسباب التي وُجّهت القيادات السياسية بالمغرب الأوسط خلال فترة الدراسة إلى اعتماد سلطان عقوبة النفي والتغريب ونُهج سياسة التهجير الفردي والجماعي، وتداخلت العوامل التي خصّبت الأرضية لذلك، وانحصرت بشكل مركّز في: جهود السلطة السياسية لتصفية مظاهر المعارضة والمتمرّدين على سلطانتها، وأوجه القمع العسكري ضدّ من دعم القائمين عليها والمدبّرين لفصولها، وكذا ضمن مساعي محاربة الخيانة والتآمر السياسي الصادر من رجال الحكم والسياسة، أو للفصل في قضايا النزاع والصراع حول ولاية العهد والتعاقب الوراثي، وحتى في

أطار معاقبة أهل التبذير والفساد السياسي والاقتصادي، بالإضافة إلى نهجها في مسعى التأديب على مظاهر النقد السياسي ووجهات النظر المخالفة لرؤية السلطة من طرف فئة النخبة العلمية. وكانت ظرفية الصراع السياسي والعسكري بين السلط المتعاقبة على مجال المغرب الأوسط للانفراد بسيادته والاستئثار بحكمه، ونزاع عناصر الأسرة الحاكمة الواحدة فيما بينهم، وجهود الدولة لتوسيع حدودها وفرض السيطرة على مجالات الغير أو صدّ صنوف الاعتداء وتأمين الرعية، مناخا خصبا ساهم في لجوء السلطة إلى اتباع سلطان النفي والتغريب ضدّ رجال الطبقة السياسية والإدارية؛ أمراء كانوا أو وزراء أو ولاّة أو قضاة أو قادة عسكريين ونحو ذلك من صنوف المناصب التي كانوا يتولّونها.

ولئن كانت أغلب النصوص المصدريّة التي طرقت التاريخ السياسي لبلاد المغرب الأوسط خلال الحقبة الوسيطة -بناءً على ما أمكننا الإطلاع عليه- لا تُحيلنا على مادة كافية تكشف بجلاء مواقف القيادات السياسية والعسكرية التي أمكنها اعتلاء سدّة الحكم على ذلك المجال حيال رجال الطبقة السياسية لذلك الإقليم بعد انهيار نظام حكمهم به، بكونهم نهجوا سبيل التغريب في حقهم من عدمه ضمن المادة التاريخية التي خصّها أصحابها بمجريات أحداثها ونتائج فصول الصراع العسكري الذي مثّل مشهدها، حتى وإن كانوا قد أوردوا إشارات صريحة عن مظاهر تحرك بشري ملحوظ رافق فترات سقوط تلك الأنظمة الحاكمة والهزات التي صاحبت فترات الانتقال السياسي، فإنّ مُسبّبات ذلك التحرك البشري وعمليات الفرار التي أعقبت مراحل السقوط قد لا تخلو من نهج القيادات المنتصرة لسبيل النفي والتغريب في حقّ ساكنة الإقليم سواء فرادى أو جماعات ورجال حكم كانوا أو رعية.

مع الإشارة إلى أنّنا سنقتصر في متن هذه المخططة من البحث على تتبّع الحوادث الكاشفة لمظاهر نفي وتغريب رجال السلطة الحاكمة، ونحسب أنّ فرار الإمام الرستمي يعقوب بن أفلق بن عبد الوهاب بن رستم (ت310هـ/922م) وجماعة من الإباضيين نحو وارجلان⁽¹⁾ ثمّ سدراتة⁽²⁾. يندرج ضمن العيّنات الكاشفة عن التهجير القسري للقيادات السياسية وفرارها الاضطرابي حفاظا على النفس والأهل⁽³⁾.

أمّا من المشاهد الكاشفة لمظهر من مظاهر تغريب المنتصر المُستأثر بحكم المغرب الأوسط لسلفه الذي كان يحكم ذلك الإقليم، في صورة أوضح من سابقتها، فنعتقد أنّه ذلك الذي تُفصح عنه سياسة عبد المؤمن بن علي الموحدي (524-557هـ/1131-1163م) حين دانت لسلطانه بلاد بني حماد بعد دخوله بجاية سنة 547هـ/1152م؛ حيث بعدما هزم العرب في وقعة سطيف، أرسل "عبد المؤمن يحي بن العزيز إلى بلاد المغرب"⁽⁴⁾. وذكر التجاني في رحلته: أنّه رجع إلى عاصمة الدولة بالمغرب الأقصى بجميع من حكم عليه وفي جملتهم يحي

¹ - انظر بشأن هذه المدينة: ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، 1421هـ/2000م، ص70، مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط2، 1986، ص224، الحموي، معجم البلدان، مج4، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1397هـ/1977م، ص453.

² - سدراتة: مدينة تقع إلى الجنوب من وارجلان تبعد عنها بمسافة 14 كلم. انظر: البكري، المسالك والممالك، مج2، تحقيق، جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1424هـ/2003م، ص230، مزهودي مسعود، الإباضية في المغرب الأوسط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ-1996م، ص35.

³ - أبو زكريا يحي، سير الأئمة وأخبارهم، تج، إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، (د.ط)، 1399هـ-1979م، ص113، أبو العباس الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تج، إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص104، لقبال موسى، دور كنامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1979، ص342.

⁴ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، راجعه، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2003م، ص372.

بن العزيز الحمادي (515-547هـ/1121-1152م)، فأسكنه في مراكش⁽¹⁾. ولما كانت سنة 548هـ/1153م وصل الخليفة إلى مدينة سلا⁽²⁾. "واصطحب يحي معه، فأسكنه بها في بعض قصور بني عشرة إلى أن مات هناك"⁽³⁾. في حين تبرز مظاهر نفي رجال الحكم في حلّة أكثر وضوحاً على ضوء التدابير التي اتخذتها القيادة الموحدية لإدارة شؤون أقاليم الدولة المترامية شرقاً وغرباً، ففي خضم جهود خلفائها لتضييق الخناق على مظاهر الفساد السياسي، وتفعيل حاسة الرقابة على ولاء الدولة ومتابعة أنشطتهم بشكل دوري ومستدام، كان شيخ "كومية"⁽⁴⁾ "أبو زكرياء بن حيون" المشرف على تلمسان، من العمال الذين وصلت الأخبار بفسادهم، حيث تمّ سجنه⁽⁵⁾، ثمّ نفي إلى "بطلوس"⁽⁶⁾.

3. مؤثرات عقوبة التغريب في نسيج العلاقة بين السلطة والرعية:

من الطبيعي أن السير السليم لمسار الحياة الاجتماعية تحت سقف أي كيان سياسي يقتضي حرص السلطة على توفير المناخ السياسي الأمثل لإدارة شؤون الرعية في كنف الاستقرار والرفاهية الاجتماعية والرخاء الاقتصادي وفعالية الحراك الثقافي، كما يتطلب سعيها الحثيث لنفخ الروح بشكل مستدام في جسم علاقتها مع الرعية لاسيّما فئة النخبة العلمية على تباين تخصصاتها. أمّا إذا احتلّ نظام التوازن الناظم لمسار تلك العلاقة، وشاب الاضطراب مقومات التواصل الفاعل بين السلطة ورعيّتها، وتزعزع بنيان الثقة فيما بينهما؛ لتفريط من السلطة في أداء واجباتها، أو شطط ناجم عن سوء إدارة شؤونها، أو ظلم وتعسف اتّسمت به سياستها، فإنّ ذلك لا محالة نذير بزوال ذلك المُلْك، واضطراب في نظام الحياة الاجتماعية، ونشوب الصراع ومظاهر التمرد، إلّا إذا أحسنت القيادة السياسية معالجة هذا الوضع بإعادة النظر في سياستها المنتهجة، وإصلاح الخلل وفق ما يقتضيه الحال وتناغماً مع ما يتطلبه الموقف وبما يستدعيه من إجراءات، تمكن من تدارك الأمر. يقودنا هذا الطرح في مسار العلاقة بين السلطة والرعية إلى بحث إشكالية لجوء السلطة إلى عقوبة النفي في حق القائمين على عمليات التمرد والانتزاع الناجم عن سوء الوضع الاجتماعي والسياسي الذي تعيش الرعية بين جناحيه عقب انتصارها في حروبها ضدّهم أو في خضم مظاهر الصراع السياسي بين أفراد الأسرة الحاكمة حول السلطة والاستئثار بها، وكذا في مساعيها لفرض الأمن والاستقرار ضمن مجالات حكمها ضدّ أي صنف من صنوف التعدي والتطاول على سلطانها.

¹ - حول تاريخ مدينة مراكش، انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: دوروتياكرا فولسكي، ج4، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، (د.ط)، 1407هـ/1986م، ص90، الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، (د.ط)، 1333هـ/1915م، ص157.

² - سلا (Salé): مدينة أزليّة تقع على ساحل المحيط الأطلسي يفصلها الوادي الذي يصب فيه عن رباط الفتح، للمزيد انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987، ص357.

³ - التجاني، الرحلة، قدم لها، حسن عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، (د.ط)، 1981م، ص344، الحداد حميد، النفي والعنف في الغرب الإسلامي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 2012، ص56.

⁴ - انظر بشأن هذه القبيلة، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص439، الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص13-14.

⁵ - وذلك بعدما اشتكى أهل تلمسان من ظلم العمال الذين عيّنتهم الوزير عبد السلام الكومي في عهد عبد المؤمن بن علي، وتعسف سياستهم في إدارة شؤون المجال. ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص116-117، حسين مصطفى، دور عبد المؤمن بن علي الكومي بنشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين في المغرب الإسلامي "المغرب والأندلس 510-558هـ، أطروحة دكتوراه، جامعة الأردن، الأردن، 1993، ص117، الحداد، المرجع السابق، ص67.

⁶ - بطلوس: مدينة أندلسية حديثة البناء، تمتاز بموقع استراتيجي هام، يُحاذي موقعها الممالك المسيحية، لعبت دوراً ملحوظاً في التاريخ السياسي للأندلس، سقطت على أيدي الليونيين سنة 627هـ/1229م، انظر: البكري، المصدر السابق، مج2، ص393.

إنَّ إمعان النظر في مجريات حوادث الصراع القبلي والمنافسة للاستئثار بالجمال، والذي كان من أبرز صوره في مجال المغرب الأوسط: هو ثورة أبي الفهم حسن بن نصر الخراساني⁽¹⁾ ضدَّ السلطة الزيرية بمجال كتامة، يقودنا للوقوف على جهد الملك الزيري المنصور بن بلكين (373-386هـ/996-984م) في مسعاه لرأب الصدع وترميم الانشقاقات السياسية والقضاء على مظاهر التمرد ضدَّ دولته، حيث أقدم بعد القضاء على أبي الفهم وإخماد نار ثورته سنة 378هـ/988م على نقل سكان ميلة إلى باغاية⁽²⁾. كإجراء انتقامي من أهل المدينة الذين أووا ونصروا الخراساني الثائر ضدّه، بالإضافة إلى تخريب عمران المدينة والمناطق المجاورة لها⁽³⁾.

ولئن كان انتصار المنصور بن بلكين يؤكّد فشل مشروع رجال بلاط القاهرة القاضي بربط بلاد المغرب بالسلطة الفاطمية وعدم قدرتهم على التدخل في شؤون حكم الدولة الزيرية بشكل مباشر أو غير مباشر، فإنَّ سياسة المنصور الردعية لأهل ميلة وما جاورها من مناطق كتامة ما مكّنته من كسب ودّهم ولا لقطع دابر الكيد الفاطمي لدولته بشكل تام؛ ذلك أنّ الأمر لم يطل عقب فشل ثورة أبي الفهم الخراساني وظهرت حركة عدائية أخرى في كتامة سنة 379هـ/990م، تزعمها داغ اسماعيلي آخر يعرف بأبي الفرج، حيث لقيت حركته التفافا حولها من طرف كتامة ثارا لما حلَّ بهم وبأبي الفهم⁽⁴⁾.

بالنظر إلى تبعات زحف القبائل العربية الهلالية نحو بلاد المغرب الأوسط خلال العقد السادس من القرن الخامس الهجري (11م)، نستشف ضمن جهود السلطة الحمادية لمجابهة الزحف والتعايش مع الظرف وتفادي الصدام المباشر مع فروعها وتلافي مظاهر الازعاج التي تثيرها عناصر بعض تلك القبائل في ضواحي العاصمة الحمادية القلعة، أن القيادة وجهت القبائل الزناتية نحو الجنوب بعدما عجزت الأخيرة عن مجابهة العرب ومدافعهم بمنطقة الزاب، حيث أزاحتهم العرب عن منطقة الزاب إلى المناطق الصحراوية، واستأثرت به لنفسها، كما أجبرت العرب القيادة الحمادية على عقد اتفاق بينهما يقضي باحتفاظهم بالمدن وترك الأرياف لبني هلال⁽⁵⁾. وهذا الاجراء حتى وإن كان في صالح القبائل الهلالية على حساب عناصر زناتة، فإنَّ نشاطها لم يتوقّف عند هذا الحدّ وإتّما تواصل ضررها بالإقليم وكانت موقعة سيبية⁽⁶⁾ سنة 457هـ/1065م تمثّل محطة تحوّل حاسمة في مسار العلاقة بين السلطة الحمادية والقبائل الهلالية، بالنظر إلى الخسائر المادية والبشرية الفادحة

¹ - هو داعي شيعي تزعم ثورة ضدَّ السلطة الزيرية بإقليم كتامة، بدعم من بلاط القاهرة في عهد الخليفة الفاطمي نزار بن المعز، حيث لقي هذا الثائر قبولا عند بعض الكتّامين ودعم منهم، استطاع المنصور القضاء عليه وعلى ثورته سنة 378هـ/988م. للتفصيل، انظر: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح، ج- س. كولان وإ. لقي بروقتسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ص 240، النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج 28، تح، عبد المجيد ترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص100.

² - باغاية (خنشلة حاليا): مدينة قديمة، تقع ضمن إقليم الزاب، تحت جبل أوراس، انظر: مجهول، الاستبصار، ص164، الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 1414هـ/1994م، ص276.

³ - البكري، المصدر السابق، مج2، ص 245، ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص331.

⁴ - حول تفاصيل هذه الثورة وأبرز نتائجها على علاقة بني زيري بالفاطميين، انظر: لقبال، المرجع السابق، ص 591.

⁵ بشأن تفاصيل الصدام العسكري بين العرب والسلطة الصنهاجية بالمغرب سواء الزيرية أو الحمادية، وانعكاسات ذلك الصراع على حضارة بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري (11م)، انظر: التجاني، المصدر السابق، ص19، ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح، محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ط)، (د.ت)، ص83، حسن محمد، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس، 1999، ص 30، رشيد، بورويبة، وآخرون: الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1984، ص 207، عويس عبد الحليم، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991م، ص 121.

⁶ - سيبية: مدينة قديمة البناء تقع على الطريق بين القيروان وتبسة، تسكنها قبائل من البربر، وتمتاز بكثرة الأتجار، والعيون، والأشجار والفواكه، والحمامات والمساجد، وحواليها جبال كثيرة يسكنها من العرب قوم يعرفون ببني الكسلان، وحوهم قبائل بربرية مثل هواره ومرنيسة، أنظر: البكري: المسالك والممالك، مج 2، ص 330، مجهول: الاستبصار، ص 161.

التي تكبدتها القيادة الحمادية في هذه الموقعة على أيدي القبائل الهلالية المتحالفة ضدها مع خصومها من بني زيري⁽¹⁾. كما ازدادت حدة تأزم علاقة السلطة الحمادية مع العناصر الزناتية هي الأخرى، لاسيما بانحياز زعيم زناتة إلى صف تميم بن المعز الزيري (454-501هـ/1062-1108م) في موقعة سببية ضد الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م). ولم يتوقف النشاط العدائي لهذه العناصر الزناتية ضد دولته على امتداد فترة حكمه خاصة في منطقة الجنوب، ومن ذلك: خروج المنتصر بن خزون الزناتي على رأس قوة من زناتة وبني عدي من العرب لاقتحام المسيلة وأشير سنة 460هـ/1068م، بيد أن الناصر استطاع أن يكسر شوكة هذا الثائر ويخمد نار ثورته⁽²⁾.

من الحوادث التاريخية التي وقفنا عليها في عهد الدولة الحمادية وذات صلة بمرامينا من هذه الدراسة: حادثة نفي الذمي اسحاق الفاسي وإزعاجه من قلعة بني حماد إلى الأندلس التي استوطنها، وذلك سنة 481هـ/1088م⁽³⁾. ولئن كنا نعوز لنص تاريخي -وذلك في حدود ما وقفنا عليه من مادة خبرية- يُعَيِّنُ اللّام عن سبب النفي، وهل كان لهذه الحادثة صدى على مستوى علاقات الدولة الخارجية أم كانت حدثا معزولا مَرَّ دون أن يكون له تأثير؟ فإنّه وبمطالعة النص التاريخي الكاشف لطبيعة العلاقات الخارجية الدولة الحمادية، يتبدى لنا بأنّ علاقة بني حماد ببابا الكنيسة المسيحية في إيطاليا، قد عرفت مداً وجزاً؛ إذ اتّسمت خلال عهد الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م) بالودّ والتعاون حيث تبادل الطرفان الرسائل، من قبيل الرسالة الخاصة التي أرسلها البابا "جريجوري السابع" إلى الأمير الحمادي الناصر سنة 469هـ/1076م تعبيرا عن وشائج الصداقة وروابط الود والعلاقة الحسنة بين السلطة الحمادية والكنيسة الإيطالية⁽⁴⁾. لكن هل تواصلت علاقة بني حماد بكنيسة إيطاليا على ذلك الود والتعاون في عهد ابنه المنصور (481-498هـ/1089-1106م) أم أخذت مسلكا غير ذلك؟ على اعتبار أنّ حادثة نفي الذمي كانت سنة 481هـ/1088م وهي السنة التي توفي فيها الناصر. وإن كنا نفتقر إلى نص تاريخي -في حدود ما وقفنا عليه من مادة خبرية- يُجَيِّنُنا على هذا التساؤل، ويكشف لنا بشكل صريح عن هوية هذا الذمي هل هو يهودي أم مسيحي؟ ونعوز لرباط تاريخي يربط هذه الحادثة بدلالة ما سنسوقه، فإننا نرى من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنّ مدينة المهدية عاصمة الدولة الزيرية قد تعرّضت في نفس السنة (481هـ/1088م) إلى اعتداء من طرف نصارى صقلية، أين قتلوا الناس وأحرقوهم بالنار على قول ابن عذاري⁽⁵⁾. ولئن كانت هذه الحملة تمثّل محطة من محطات الجهد النصري بصقلية للسيطرة على الشريط الساحلي لبلاد المغرب لاسيما الأدنى والجزء الشرقي من الأوسط، فإنّها من الطبيعي أن تترك صدى في بيت الحكم الحمادي؛ ذلك أنّها تطاول نصري صارخ على

¹ - حول تفاصيل هذا الصدام العسكري في سببية بين جيوش الناصر الحمادي وقيم بن المعز، وطبيعة التحالفات المنسوجة خلالها، انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 27، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص86.

² - ابن خلدون: العبر، ج6، ص231، ابن الأثير، المصدر السابق، مج8، ص373، عويس، المرجع السابق، ص136.

³ - الحداد: المرجع السابق، ص182.

⁴ - وذلك بعدما تم الاتفاق على إقامة أسقفية في بونة، أين تُرك للنصارى الموجودين ببونة حرية انتخاب أسقفهم، انظر: عويس، المرجع السابق، ص187، الملي مبارك، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج2، تقديم وتصحيح، محمد الملي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص211، زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3، منشأة المعارف، الإسكندرية، ومطبعة أطلس، القاهرة، (د.ط)، 1990، ص467. أرشيبالد، ر.لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط 500-1100م، ترجمة، أحمد عيسى، مراجعة، محمد شفيق غريال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص386.

⁵ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص301. انظر كذلك: النويري، المصدر السابق، ج24، ص126-136.

البلاد المغربية، وتهديد مباشر للكيان الاسلامي بالمنطقة، يقتضي الحذر واستشعار الخطر، وخصوصا وأن مدينة بونة تعرضت في فترة سابقة لاعتداء نصارى صقلية على أهلها حيث دمروا سنة 425هـ/1034م مرفأ المدينة وتركوها خراباً⁽¹⁾.

خلال فترة الحكم الموحد، نُحِيلنا المادة المصدرة على جانب من تفاصيل سياسة قيادة الدولة تجاه بعض القبائل الهلالية في مسعاها لفرض الأمن السياسي في المنطقة، وخلق فرص التعايش في المجال المغربي، واستثمار الامكانيات العسكرية التي تحوزها عناصر هذه القبائل؛ حيث عمدت إلى تغريب عرب بني هلال إلى المغرب الأقصى. فبناءً على الرؤية التي تبناها أحد الباحثين⁽²⁾، نقف على موقفين متباينين من لدن القيادة الموحدية حيال العرب الهلالية؛ فعبد المؤمن بن علي (524-557هـ/1131-1163م) وولده يوسف (558-580هـ/1164-1184م) جلبا العرب من المغربين الأوسط والأدنى إلى الأقصى تقربا وتآلفا بهدف دفعهم للمشاركة في حركة الجهاد؛ إذ بعد معركة سطيف سنة 548هـ/1153م وانحزام القبائل العربية: بنو هلال وعدي والأثبج وزغبة، أين تمّ أخذ أموالهم ونسائهم إلى مراكش، أمر الخليفة عبد المؤمن بالاتصال بأمرائهم لإخبارهم بأنّ أهلهم بخير، وأنّهم مُرَحَّب بهم في مراكش، فتوافدوا عليها وأكرم وفادتهم وأحسن إليهم. في حين رام الحفيد يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1199م) بنقلهم سنة 584هـ/1188م إلى المغرب الأقصى، عقابهم وتغريبهم؛ وذلك حين ناصروا علي بن اسحاق بن يوسف المعروف بابن غانية⁽³⁾.

ولعلّ من أبرز تبعات سياسة التغريب التي انتهجتها السلطة الموحدية في حق عرب بني هلال، أنّ قادة هذه القبائل أصبحوا يتوجسون خيفة من دعوة الموحدين لهم لنصرة جيوشهم في جهاد النصاري بالأندلس، ويخشون الخروج للمساهمة في عملية الجهاد مخافة الوقوع في مصيدة سياسة التغريب التي تعتمدها الدولة في حقهم كما حدث فيما سبق من مظاهر التغريب التي سلكت القيادة الموحدية سبيلها. فعلى ضوء الرواية التي ساقها "ابن الأثير" نقف على نص تاريخي مؤداه: أنّه لما جمع الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي -وهو يروم العودة من افريقية بعد فتحها سنة 555هـ/1161م- قبائل العرب من الأثبج وبني هلال، وزغبة ورياح، وحثّهم على نصرته الاسلام، والجهاد في الأندلس، استجابوا لدعوته في البداية، ثمّ نكثوا العهد رغم أداء القسم، وقالوا: ما غرضه إلا إخراجنا من بلادنا. وعند ذلك، نكّل بهم عبد المؤمن بن علي وأوقع بهم هزيمة نكراء، وحمل معه نساءهم تحت الحفظ إلى المغرب، ثمّ هاجر إليه أهلهم في طلب حرمهم، فقبلهم الخليفة وعيّن لهم أماكن للإقامة في سلا⁽⁴⁾. كما نعتقد أنّ بني حمدون ما كان يطيب لهم المقام في مدينة سلا ولا ليرضوا عن صنيع القيادة الموحدية في حقهم وقد غرّبوا إليها تغريبا بعدما نفاهم الخليفة الموحد من بجاية لاتهم بالدخول في أمور بني غانية ومدّد يد العون لخصم من أشدّ خصومهم بالمنطقة سنة 581هـ/1185م. وبالأخص كما يذكر ابن عذاري: وأنّ القيادة الموحدية أجبرتهم على بيع أموالهم وديارهم بثمن بخس بعدما أمرت بتغريبهم. كما أنّ ابن عذاري وهو يسوق أحداث سنة 600هـ/1204م، أورد أنّه في هذه السنة كانت سطوة الخليفة الناصر الموحد (595-610هـ/1199-1213م) بعرب المغرب، حيث استأصلهم وقتل منهم، وغرّب بعض أشياخهم إلى الأندلس⁽⁵⁾.

¹ - الجليلي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الأمانة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2010، ص359.

² - الحداد: المرجع السابق، ص22.

³ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص390، الناصري، السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 1954، ص167-171، عزالدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، (د.ط)، 1403هـ/1983م، ص87-88.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص431، روجي إدريس، الدولة الصنهاجية (تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص466.

⁵ - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب -قسم الموحدين-، تح، محمد الكتاني، وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 1406هـ/1985م، ص181. انظر كذلك: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص508.

ثمَّ إنّ معالجة مسألة العلاقة بين السلطة والرعية، تقتضي المرور ولو في عجل على طبيعة مسارها الرابط بين السلطة وفئة النخب العلمية. فبالرجوع إلى ما أوردته المادة الخبرية، يتجلى لنا بأنَّ العلاقة بينهما عرفت مداً وجزراً؛ تتسم بالتقارب والتعاون حيناً، وتتأزم مع شريحة من عناصر النخبة في فترات أخرى. وإن كان مقصدنا الرئيس من هذه الدراسة هو معالجة ما يتعلّق بطبيعة المخلفات التي ترمي بها عمليات النفي الصادر في حق الرعية ومنها شريحة النخبة ومسبباتها، فيمكن القول: إنّ من الطبيعي أن تعرف تلك العلاقة أيضاً تذبذباً لاسيّما حين تصدر في حقّها أحكام النفي وقرارات التغريب تكميماً للأفواه الصاعدة بالحقيقة، المترجمة لصوت العامة تطالب بتحسين ظروف معيشتها والحد من مظاهر التعدي على حقوقها. فعقوبة النفي والتغريب إذا انحشرت في زاوية العقوبة التعسفية وأصناف العنف الممارس في حقّ النخبة ظلماً وجوراً من شأنه أن يوسّع من حدود دائرة الشقاق بين السلطة والنخب العلمية، ويوسّع من هوة التباعد في الرؤى حيال معالجة القضايا السياسية والاجتماعية الراهنة أو المستجدة، ويضرب مقومات التماسك والتعاون التي ينبغي أن تصطبغ بها أوصال العلاقة فيما بينهما. ونحسب أنّ ما تفصح عنه علاقة السلطة الفاطمية بفقهائ المالكية يصدق على الطرح الذي نتبناه؛ فقد انتهج الفاطميون في حقبة زمنية من تاريخهم سياسة تعسفية تجاه فقهاء المالكية من تنكيل وتعذيب ونفي في حال فشل أسلوبهم السلمي لإجبارهم على القبول بمذهب الشيعة. ومن أبرز المواقف الكاشفة لذلك: انتقال الفقيه أحمد بن علي الباغائي المقرئ (ت401هـ / 1011م) من باغاية إلى قرطبة الأندلسية، فراراً من الدخول في طاعة العبيديين⁽¹⁾.

وهو ما تجلّيه كذلك طبيعة العلاقة بين السلطة الموحدية بطائفة من فقهاء المالكية، والتي اتسمت في الغالب بنوع من العداء والتصادم. وكان جوهر الخلاف: هو التضارب في الرؤى بين أصحاب النزعة الأصولية العقلية وفق العقيدة الأشعرية من الموحدين وبين أصحاب النزعة الفروعية من فقهاء المالكية حيال العديد من المسائل الدينية ومنها تحرير العقل الفقهي من الجمود والتقليد، ومسألة التجسيم. ومن مظاهر التصادم بين الطرفين: إصدار الخليفة المنصور (580-595هـ / 1184-1199م) الأمر بحرق كتب الفروع، وقصده كما يُورده صاحب المعجب⁽²⁾: "محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث". ومن ثمّ، كانت السلطة الموحدية تلجأ في بعض الأحيان إلى معالجة الخلل الذي طبع علاقتها بفقهائ المالكية إلى سبيل التضييق والتنكيل والنفي والتغريب، خاصة حيال من تشدّد في موقفه المعارض أو اتخذ موقفاً لا يتناغم ووجهة نظر السلطة⁽³⁾.

4 الأضرار النفسية لعقوبة النفي والتغريب:

لعلّه لا سبيل إلى الشك، أن تُعتبر عقوبة النفي وعمليات التغريب والتهجير القسري أحد صنوف العقاب النفسي؛ ذلك أنّ الجسد الذي يتعرّض لعقاب النفي وإن كان يظلّ مُحافظاً على أمنه البدني وسلامة جسمه الظاهرية إلّا أنّ حرمانه من البقاء بين ذويهِ وفي حضنه الاجتماعي وفضاءه الثقافي المعهود سيهدم تماسكه النفسي ويعصف بكيانه الوجداني وأمنه الاجتماعي، نظير ما يطال نفسيته من إرهاب، وتفكيكه من تعب، وجسمه من عناء.

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أنّ عقوبة النفي التي سلّطها الطرف المنتصر على خصمه المهزوم لم تستثن فئة من الفئات الاجتماعية، وما كان المشرفون على السلطة بالمغرب الأوسط خلال الفترة الزمنية الخاضعة للدراسة يُعيرون اهتماماً لطبيعة المكانة التي يحتلّها عناصر الفئة

¹ - بن عياش الطاهر، الفقهاء المالكية والسلطة الموحدية في المغرب الاسلامي 510-668هـ / 1116-1269م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر، 1436هـ / 2015م، ص43-44.

² - المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح، محمد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص453.

³ - المراكشي، المعجب، ص453، عياش الطاهر، المرجع السابق، ص76-99.

المستهدفة بعقوبة النفي والتغريب، سواء المكانة السياسية (القادة ورجال الحكم) أو في الهرم الاجتماعي (التجار وأرباب العمل والصنائع) أو العلمية (العلماء والأدباء والشعراء) وحتى الدينية (الفقهاء ورجال الصوفية). وقد أحسن القول صاحب دراسة "النفي والعنف في الغرب الإسلامي" حين كشف عن جانب من حجم المعاناة التي تكبدها الفرد المغربي، فقد خلص إلى أنّ للنفي تأثير نفسي هائل على شخصيته؛ ذلك أنّه من الصعوبة بمكان على المنفي أن يترك أهله وبلده وبيئته، لاسيّما حين يُضاف إلى ذلك الوجد النفسي الناجم عن الغربة ما ينتابه من خوف وهلع تحت ضربات سوط الحرب وجبروت العنف وسلاح التعسف حفاظا على نفسه من مظاهر القتل والتنكيل والأسر والتعذيب، وكلّها عوامل إذا استجمعت قواها واتّحدت، فعلت فعلتها في العصف باستقراره النفسي وتماسكه الوجداني ولاسيما شريحة الأطفال. حتى قيل عن مشقة النفي وعظيم المحنة التي تلحق المنفي من جرّائها: "أنّ للنفي مشقة لا تنكر، وللخروج من الديار صعوبة لا تتفد ولا تدحض". وأنّ النفي يؤدي "إلى قطع الصلة بالوطن والأحباب، كما يؤدي إلى الحلول بمناطق قد يصعب التأقلم معها صحيا ونفسيا واجتماعيا، مما يؤكد شدة هذه العقوبة وتأثيرها"⁽¹⁾.

إنّه من خلال تتبعنا لمظاهر النفي وعمليات التغريب والتهجير القسري للعناصر البشرية بالمغرب الأوسط في خلال فترة الدراسة، يتبيّن بأنّ لتلك السياسة التهجيرية التغريبية تبعات سلبية على نفسية المهجّرين وحياة المنفيين الاجتماعية. وإن كانت النصوص المصدرية لا تطالعنا بمادة كافية من شأنها أن تُجَلِّي صور تلك المعاناة النفسية التي مسّت حياة مختلف الشرائح الاجتماعية التي شملتها، فإنّ ذلك لا يمنع من محاولة استنطاق خبايا النص المصدري وبناء مقاربات بحثية على ضوء مادته في حدود الإمكان، عسانا نكشف ولو بصيص من واقع تلك المعاناة النفسية ومستويات تأثير صنوفها على حياة من كان ضحيّتها.

فبالنظر إلى عمليات التهجير القسري في شكل فرار جماعي التي تعرّضت لها ساكنة تاهرت عقب الاجتياح الفاطمي لها سنة 297هـ/910م، نعتقد أنّ ضرر ذلك الفرار كان جرحه عميقا في نفسية أولئك الفارين بجلدهم، يخشون أن يلحقهم الجيش الفاطمي فيفنيهم، خاصة إذا أضيف له جرح المعاناة الناجم عن مشقة الانتقال من تاهرت نحو وارجلان على وجل، ثمّ منها نحو سدراتة من جرّاء ما يلاقيه الفارون من أهوال وأخطار الطريق وخصوصا على صحة الأطفال الصغار وأمنهم النفسي⁽²⁾.

والأمر ذاته ينطبق على أهل ميلة الذين غرّهم المنصور الزييري (373-386هـ/984-996م) بنقلهم إلى باغاية - كما مرّ بنا - إذ يُفيدنا في هذا الصدد الجغرافي البكري بنصّ في غاية الأهمية، يكشف بأنّ سكان ميلة الذين أخرجهم المنصور منها إلى باغاية مع أولادهم وممتلكاتهم، تعرّضوا في الطريق إلى أعمال النهب والسلب فلم يبق من متاعهم شيء⁽³⁾. ونعتقد أنّ هاتين العمليتين ستؤثّران بشكل ملحوظ على نفسية المهجّرين، سيّما وقد اتّحدت أضرار عملية التهجير مع حادثة نهب ممتلكاتهم على نفسيتهم.

وعليه، فإنّ مظاهر التغريب وعمليات النفي هذه، لا يمكن أن تمرّ بسلام في كل حالاتها وصنوفها على نفسيات من سلّطت في حقهم ومُورست في شخصهم، وبالأخص في نفوس أفراد العائلات وأهل المنفي التي يغادرها مغرّبا عنها وعن بلده، أو في نفس ربّ الأسرة

¹ - الحداد، المرجع السابق، ص 184.

² - أبو زكريا، المصدر السابق، ص 112، الباروني سليمان، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج 2، تح، أحمد كروم وآخرون، دار البعث، الجزائر، 2002، ص 358.

³ - البكري، المصدر السابق، مج 2، ص 245.

وصاحب العيال الذي يجد صعوبة في الاستقرار في بلد محدد ويتقلب من بلد لآخر يعاني ديمومة الرحلة مشدداً صحة أطفاله أو عائلته، خصوصاً إذا وجد صعوبة في التأقلم والاندماج في المجتمع الجديد، أو استغرقت عملية اندماجه ضمنه مدة معتبرة⁽¹⁾.

مع أنّ التأثيرات الاجتماعية والنفسية لم تقتصر على مظاهر التهجير التعسفي الجماعي، وإنما أسهمت في ذلك أيضاً أوجه التغريب والنفي الفردي، والذي تجسّد بشكل أكثر في مظاهر نفي وتغريب عناصر من فئة النخب العلمية والسياسية. فقد لعبت النخب العلمية خلال الحقبة الوسيطة دوراً محورياً في التخفيف من وطأة الاستبداد السياسي، وتطبيب أمراض واقعه السائد ومعالجة بعض الأمراض الاجتماعية الناجمة عن الفعل البشري سيمّا الناجم عن تفریط السلطة أو الناتج عن سياستها العسكرية وطموحاتها التوسعية، وبذلوا جهوداً معتبرة في مسعى فرض الاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي وبالأخص فئة الفقهاء، سواء بسلوك سبيل النصيحة لرجال السلطة التنفيذية، أو من خلال رفض تولّي المناصب والاستقالة منها، أو حتى بالانحياز إلى صفّ المعارضة وقادة الثورة والتمرد والمتآمرين على السلطة وقلب الأنظمة. لذلك، عمدت القيادات المغربية التي لم تقبل النقد السياسي والرأي المعارض إلى سبيل التغريب لتكسيم الأفواه المعارضة والمجاهمة للسلطة بالقول والقلم، مُعتبرة مواقفهم تلك بمثابة المسّ بسيادتها في حرية اتخاذ القرارات وإدارة شؤون البلاد، وتطاولوا على مكانتها السياسية وسلطانها الإداري، وتدخلوا غير مشروع في اختصاصاتها ومهامها السياسية والإدارية.

في هذا الصدد، نعتقد أنّ من المشاهد التي تصدق على الرؤية التي تبينناها آنفاً: الحادثة الكاشفة بأنّ اضطراب الأوضاع السياسية ببحاية في العهد الموحد بسبب ثورة بني غانية (580-633هـ / 1184-1235م) تعدّ من الأسباب التي كانت وراء دخول القاضي أبي محمد عبد الله بن أبي عباس التميمي المعروف بابن الخطيب (ت 630هـ / 1232م) الأندلس منفياً، حيث كانت غرناطة الحاضرة التي نزل بها⁽²⁾. وأنّ جهد السلطة الموحدية لتجسيد مشروعها المذهبي، ووضع حدّ لصنوف المعارضة المذهبية والفكرية من لدن الفقهاء والمتصوفة، تجلّى في بعض زواياه في اتهامها للمتصوفة بالخروج عن السنة والقول بالتأويل، حيث سُعي بالصوفي أبي مدين شعيب الأنصاري (ت 594هـ / 1198م)، عند الخليفة الموحد المنصور (580-595هـ / 1184-1199م) وخوّفه منه على دولته، فأمر بإحضاره وتغريبه من بحاية إلى مراكش. وهو ما يؤكّده الغبريني (ت 714هـ / 1304م) في قوله: "ولمّا اشتهر أمره ببحاية سُعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن"⁽³⁾، إلّا أنّ المنية وافته في الطريق بالعباد خارج تلمسان⁽⁴⁾.

وحتى وإن لم يكن موت هذا المتصوف بإيعاز من السلطة الموحدية ولا بفعل مباشر من جندها وأنّه موت طبيعي، فإنّ ذلك لا يمنع من أن تُخلّف حادثة موته آثار غير محمودّة على نفسية مريدي الشيخ وقد يطال تأثير هذا القرار الموحد باستقدام أحد أقطاب التصوف وأعمدته بالمغرب الأوسط إلى حضرته والذي أفضى إلى موته، حتى على المساس بالأمن النفسي لبعض عناصر نخبة المتصوفة من علماء وفقهاء. فعلى ضوء ما ساقه صاحب "عنوان الدراية" يتجلّى لنا مدى تأثر أصحاب الفقيه من أمر استدعائه، حيث يقول: "اجتمع عليه أكابر أصحابه وعزّ عليهم فراقه وتألّموا من حاله وانفوا عليه". وقد نحازف إلى حدّ القول: أنّه يحتمل أن يرمي القرار الموحد باستقدام أبي مدين شعيب في

¹ - الحداد، المرجع السابق، ص 130.

² - الغبريني أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببحاية، تح، عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979، ص 35، الحداد، المرجع السابق، ص 92.

³ - الغبريني، المصدر السابق، ص 28.

⁴ - قيل بواد يسر قرب تلمسان، انظر: يوسف، ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط2، 1997، ص 319، الزركشي محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ط)، 2002، ص 16، الحداد، المرجع السابق، ص 104.

نفسه هو ذاته هواجس القلق والخوف من نوايا الخليفة الموحي ويساهم ذلك التأثير إلى جانب ما كابده من مشقة السفر وأثقاله في تنامي مظاهر التعب على جسمه وصحته خصوصا وهو في سنّ متقدمة من حياته. وهو ما يمكن أن نتحسّس جانبا منه في موقف أبي مدين من حالة القلق التي انتابت أصحابه، حين قال لهم: "لا عليكم، شعيب شيخ كبير ضعيف لا قدرة له على المشي، منيته قُدرت بغير هذه البلدة ولا بدّ من الوصول إلى محل منيته"⁽¹⁾.

كما أستخدمي إلى مراكش من قبل القيادة الموحدية الشيخ أبي زكريا الزواوي (القرن 7هـ/13م) للمساءلة نظير ما كان من أمره في شأن ابن حزم الظاهري (ت456هـ/1171م) وذاع عنه، فامتثل كما يذكره الغبريني بين يدي أمير المؤمنين بحضرة مراكش⁽²⁾.

5. النفي والتهجير الجماعي ومخلفاته على الحياة الحضارية:

إلى جانب عمليات النفي والتغريب الفردي والجماعي التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة المخصصة للدراسة بذريعة العقوبة والتأديب على اختلاف المسببات وتباين التداعيات على المستويين الاجتماعي والنفسي، شهد ذات المجال تحرك بشري مقصود كانت وراءه السلطة تروم نزع سياسة تقوم على التعمير الفعلي بواسطة الآخر. حيث عمدت القيادات السياسية الحاكمة للمجال المذكور بتهجير جماعات سكانية من مناطق معينة إلى مناطق أخرى قصد تعميرها وبعث الحياة فيها على حساب المنطقة المهجورة أو ترحيلهم لأسباب أمنية توازنية⁽³⁾. ومن ثمّ تتبادر إلى أذهاننا مجموعة تساؤلات من قبيل: ما مصير المدن التي يتم نقل سكانها إلى غيرها، وماذا يحل بعمرانها ومكانتها الاقتصادية؟

إنّه وتحت ذريعة تحصيل الأمن وملازمة الاستقرار بمجال المغرب الأوسط والمحافظة على ممتلكات الدولة، عمدت السلطة الزيرية بقيادة بلكين بن زيري (362-373هـ/972-984م) عقب حملته التأديبية للعناصر الزناتية الثائرة على سلطانها بالجهة الغربية من جسم الدولة إلى حصار مدينة تلمسان سنة 362هـ/972م، وعلى الرغم من استسلام أهلها، فإنّ بلكين لم يكتف بما منحهم من أمان وعفو، وإنّما أجلاهم إلى مدينة أشير؛ أين أقاموا بالقرب منها مدينة جديدة أسموها تلمسان⁽⁴⁾. ويمكن اعتبار ما أقدم عليه بلكين يندرج ضمن أعمال التغريب والتهجير القسري للجماعات السكانية، الذي وإن انعكس إيجابا على المجال الجديد الذي تمّ تعميره في إطار سياسة التعمير بالآخر، فإنّ له تداعيات غير محمودة على حضارة المنطقة المُهجّر منها.

أما في مسعى حيازة مجال آمن يؤوي الساكنة ويُحقق أمنها وسلامتها واستقرارها، وتصريف الفائض السكاني في مناطق أخرى موازية - استراتيجيّة التوازن السكاني- وتحصيل الرواج التجاري وولوج ميدان السباق والمنافسة الاقتصادية، فقد عمد حكام القلعة الحمادية إلى بناء عاصمة بديلة هي بجاية سنة 460هـ/1068م، وقاموا بتعميرها⁽⁵⁾. وبذلك عرفت القلعة نزيفا سكانية حادّا صوب العاصمة الجديدة. وكان من بين تبعات هذا الانتقال -ولو بصورة غير قسرية- اختفاء الدور الريادي الذي لعبته مدينة القلعة سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وأخذت العاصمة الجديدة تستلبه منها شيئا فشيئا حتى غدت بجاية العاصمة الأولى وحاضرة المغرب الأوسط في عهد الناصر الحمادي ومن والاه من حكامها.

¹ - الغبريني، المصدر السابق، ص28.

² - المصدر نفسه، ص247-248.

³ - الحداد، المرجع السابق، ص114.

⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص206، روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص82.

⁵ - مجهول، الاستبصار، ص129، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص231.

وإلى جانب العمليات القسرية الخاصة بتهجير السكان من منطقة إلى أخرى عقب أي نشاط حربي أو خلاله بشكل مقصود، كانت الهجرات الشعبية الجماعية والفردية الاضطرابية، مخافة المصير المجهول بعد الهزيمة وانتصار الخصوم على جيوش قيادتهم، وبحثا من جهة أخرى عن فضاءات بديلة آمنة تقيهم نوايب النهب والسلب، وبعيدة عن المجال الجغرافي الذي تتناسل على سطحه الحروب والفتن والاضطرابات. وهذا ما يُصطلح عليه بالهجرة الاضطرابية، حيث لم يُحْفِ أصحاب القلم الذين سَطَرُوا نصوص تلك الأحداث، عمق ذلك الأثر السلبي على الساكنة، ومآل أوضاعها في ظل ذلك الاضطراب، حتى قيل: أنّ "العصر الوسيط كله عصر تحركات بشرية متقلبة شديدة التنوع، فقيام دولة يؤول في الواقع إلى انتصار تحرك بشري غالب يرمي إلى اتجاه معين غالب كذلك. ومعنى هذا أن لكل تحرك غالب تحركات مواكبة وأخرى مناوئة أو معارضة قد تختلف أهميتها باختلاف الظرفية والأحوال"⁽¹⁾.

وعليه، فإنّ من مدن المغرب الأوسط التي شهدت تحركا بشريا ملحوظا في شكل نزوح بشري تحت طائل الحرب وتجنّبا لويلاتها وحفاظا على أرواح أهلها هي مدينة تاهرت عقب الاقتحام الفاطمي لمجالها سنة 296هـ/909م، وما شهدته المدينة من اضطرابات خلال فترة الحكم الفاطمي للبلاد في ظل الصراع الذي اضطلعت به العناصر الزناتية ضدّ القيادة الفاطمية خلال النصف الأول من القرن (4هـ/10م). فكما هو قار بين ثنايا المادة المصدرة أنّ أبا عبد الله الشيعي داعي الفاطميين (ت298هـ/911م) دخل مدينة تاهرت "وانتهبها وانتهك حرمتها"⁽²⁾، فافترق أهلها في الأصقاع والنواحي والبلاد؛ حيث منهم من قصد وارجلان ومن رام بلاد جربة وجبل نفوسة ومن فضّل منطقة الأوراس⁽³⁾.

إنّ هذا النزوح القسري دونما موارد سيسهم في تعطيل حركة النمو الثقافي والعمراني والاقتصادي؛ وهو ما تجلّى على ضوء الرواية التاريخية خصوصا النص الجغرافي. فتاهرت بعدما كانت في العهد الرستمي قطب اقتصادي هام بالمغرب الأوسط ومركز حضاري حيوي؛ باعتبارها عند الجغرافي الإدريسي وغيره من الجغرافيين ممّن سجّل ملاحظاته بشأنها: مدينة حاضرة عامرة كثيرة الأسواق والتجارات وبها عديد السلع والغلات، ومقصدا لأهل العلم والطلاب، أضحت عقب الاجتياح الفاطمي وفرار أهلها عنها وتوالي مظاهر الاضطراب في مجالها، ضعيفة الاقتصاد، تعاني تراجع دورها الريادي في مجال الثقافة والعمران⁽⁴⁾.

ثمّ إنّّه وبالإضافة إلى النزوح الاضطرابي الناجم عن الظرفية السياسية بصفة جماعية، شهد المغرب الأوسط هجرة فردية ضمن الشريحة العلمية (النخبة) تحت ضغط نفس الظرف، إذ في ظل الحصار الذي تعرّضت له بجاية فرّ أبو موسى الشدالي (ت581هـ/1185م) الحافظ والمدرس والمفتي منها ونزل بالجزائر. كما أنّ اضطراب الوضع السياسي ببجاية كان وراء دخول القاضي أبي محمد عبد الله بن أبي عباس التميمي المعروف بابن الخطيب (ت630هـ/1232م) الأندلس منفيا، وكان نزوله بغرناطة⁽⁵⁾.

تأسيسا على ما تمّ تناوله آنفا، يتعيّن علينا الإشارة إلى أنّ هذا التحرك البشري الجماعي -تحت طائل التعسف أو الاضطراب- إذا لم يحتكم إلى استراتيجية مضبوطة في التوجيه بما ينسجم والتوزيع السكاني المنتظم ويتناغم وأهداف السياسة التعميرية المتوازنة، فإنّه قد يقود إلى إفراغ لمجالات واستنزاف لطاقتها البشرية لصالح مجالات أخرى أو على حسابها. وهو ما قد يُفضي في نهاية المطاف إلى انعكاسات سلبية على

¹ - الحداد، المرجع السابق، ص113-114.

² - أبو زكريا، المصدر السابق، ص112.

³ - الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص41، أبو زكريا، المصدر السابق، ص94، الباروني، المرجع السابق، ج2، ص354.

⁴ - الإدريسي، المصدر السابق، مج2، ص270، عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160-296هـ)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط3، 1408هـ/1987م، ص186.

⁵ - الحداد، المرجع السابق، ص92.

البنية السكانية للمجال المهجور، وإلى اختلال في المنظومة الاقتصادية والاجتماعية؛ حيث تتضرر المدن المهجورة بشكل قد يقود في البعض من الأحيان إلى تعطيل مسار الحركة الثقافية بها واختفاء مكانتها الحضارية أو حتى زوالها بشكل نهائي، وهو ما تجسّد في ما حلّ بمدن تاهرت، ميله، أشير وقلعة بني حماد كما مرّ بنا في بحر هذه الدراسة.

ثمّ إنّ لا ينبغي أن يغيب عنّا، حجم التأثير السلبي الذي ينجم عن عمليات النفي والتغريب والتهجير في حق عناصر النخب العلمية على المجال الذي طُرِدَتْ منه وأُفْرِغَ من أقطابها على الحياة العلمية والفكرية والحضارية لتلك الحواضر والمدن؛ حيث تفقد خدمات شريحة من العلماء والفقهاء وأهل العلم والدراية، وتحسر خبرات عناصرها وقدراتهم المعرفية ومادتهم الانتاجية في مجالات العلم والمعرفة. بالإضافة إلى أنّ ذلك التنقل والحركة المتناسلة بشكل قسري، تسهم حتى في التأثير سلباً على مردود العالم وطالب العلم نفسه حين تساهم في تعطيل حركية الانتاج الفكري والمعرفي، وتستنزف مدّة معتبرة من حياة أولئك العلماء والفقهاء في التنقل عوض أن تُسَخَّر وتُستغل في الانتاج والتأليف والتدريس. بل إنّ الأمر قد يزداد سوءاً حين يشهد مجال المدينة أو الحاضرة حركة هجرة جماعية اضطرارية ضمن شريحة النخبة العلمية إذا ما انعدم الأمن وسادت الفوضى وصنوف الاضطراب. ويُضاف إلى هذه التأثيرات السلبية على الحياة الحضارية والعلمية للمنطقة التي أُفْرِغَتْ من بعض نُخبها، وفُرضت عليهم عقوبات النفي والتغريب حياة التنقل بين المناطق والبلدان، أمّا ساهمت في ضياع مؤلفات علمية أثناء عملية التنقل⁽¹⁾.

مع أنّه يجدر بنا التنويه إلى حجم الفائدة التي تجنيها الحواضر والمراكز التي قصدها المنفيون والمغربون من العلماء وأهل الفن والكفاءة على مستوى الحياة الثقافية؛ فقد انتعشت الحياة العلمية في مدينة القلعة الحمادية حين استقطبت عدداً معتبراً من الخبرات التقنية والكفاءات العلمية على اختلاف تخصصات العلوم وفنونها، بعدما عرفت القيروان هجرة جماعية لنخبها بسبب الفوضى التي حلّت في بلاد المغرب الأدنى اثر الانتشار العربي الهلالي بها في العقد الرابع من القرن 5هـ/11م، وأسهم من له دراية بفن البناء وهندسة العمارة في انعاش الجانب الحضاري للدولة الحمادية ودعم مادة الابداع ومنح إضافة في مجال التعمير كالقصور والمساجد، بل وحتى على الحياة الاقتصادية بالقلعة حين تدعّمت موارد الدولة الحمادية المادية والبشرية بطائفة من التجار وأرباب الصنائع والعمل⁽²⁾.

كما ساهم العديد من العلماء والفقهاء الذين نُفُوا إلى بجاية - كما يتجلّى بشكل واضح في متن المبحث الموالي من بحر هذه الدراسة - في انعاش الحياة الثقافية بهذه الحاضرة، ومنهم على سبيل المثال: أبو محمد عبد الحق الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط الذي نفي إلى بجاية على اثر الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة اللمتونية، وتوفي بها سنة 581هـ/1185م. حيث جاء في الديباج المذهب: أنّه نشر بها "علمه وولي الخطبة والصلاة بجامعها، وكان فقيها حافظاً عالماً بالحديث وعلمه، عارفاً بالرجال، موصوفاً بالخير والصلاح"⁽³⁾. وكذلك ابن الأبار الذي نُفِيَ إليها سنة 655هـ/1251م، وقضى حياته بها منشغلاً بالتصنيف في فنونه. كما استفادت مدينة تلمسان هي الأخرى من خدمات النخب العلمية الجليلة، ومن أبرز أولئك الذين ساهموا في انعاش الحياة الثقافية بها بعدما تعرضوا للنفي والتغريب: الفقيه والمدرس أبو موسى الشدالي (ت 581هـ/1185م) الذي درّس بتلمسان الحديث والفقه والمنطق وغيرها من العلوم⁽⁴⁾.

¹ - بوتشيش، المرجع السابق، ص152، الحداد، المرجع السابق، ص184.

² - انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص228، روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص99.

³ - ابن فرحون، المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1417هـ/1996م، ص277، الزركشي: المصدر السابق، ص15.

⁴ - ابن فرحون: المصدر السابق، ص59، الحداد: المرجع السابق، ص181.

6. مجال المغرب الأوسط وجهة للتغريب:

نتبع في هذه المخططة من البحث عمليات التغريب التي كان مجال المغرب الأوسط الوعاء الجغرافي الحاضن لها خلال الحقبة الزمنية المخصصة للدراسة، سواء تعلّق الأمر بصنوف النفي والتغريب الفردي المنتهج في حقّ النخب، أو التهجير المنتهج في حق الجماعات، على اختلاف مسبباته ودواعي المشرفين على عملياته. فحين ساءت العلاقة بين السلطة والرعية بالأندلس في عهد حكم الدولة العامرية، تكبدت النخبة مع رعيتهما محن النفي والتنكيل والتغريب، خاصة حين أخذ المنصور بن أبي عامر (366-393هـ/976-1002م) على عاتقه مهمة تطهير البيئة السياسية والتنكيل برؤوس الفتنة ومصادر الازعاج والقلق⁽¹⁾، برزت تيارات المحجرة في اتجاهات متنوعة بسبب الخوف وعدم الاستقرار النفسي، كانت مدينة تاهرت مقصد زيري بن عطية المغراوي منزعجا عن الأندلس ومنفيا منها.

كما كان المجال البحائي حقلًا شدّ انتباه بعض القيادات السياسية لاتخاذهم منفى وموطن تغريب لعدد من الشخصيات المغربية وحتى الأندلسية على اختلاف مكانتها في الهرم الاجتماعي، وإقليمًا مستقطبًا لاهتمامها لنفي الجماعات إلى بساطه. ومن ذلك: أنّه في عصر ملوك الطوائف بالأندلس (422-479هـ / 1031-1086م) وفي خضم جهد المرابطين لإعادة هيكلة البلاد ودعم القائمين عليها في وجه العدو النصراني ومعالجة حوادث الاضطراب التي شهدتها البلاد الأندلسية زمنئذ، انتهج المرابطون سياسة صارمة حيال ملوك الطوائف الذين لم يكونوا في مستوى المسؤولية التي أنيطت بهم من لدن رعاياهم، حيث خلعوا من خلعوا منهم ونفوا من نفوا، وكان "المعتمد بن عباد" من الذين تمّ نفيهم في رجب سنة 484هـ / 1091م، وقد نتج عن نفيه فرار معز الدولة "أحمد بن صمادح" في رمضان 484هـ / 1091م من الأندلس إلى بجاية عاصمة بني حماد عملا بوصية أبيه؛ حيث أوصاه كما ذكر ابن عذاري قائلا: "إذا بلغك أنّ ابن عباد جرى عليه شيء من قبل هؤلاء أصحاب اللثام فاركب هذا البحر إلى بلاد بني حماد فما بقي بعده إلا ستة أشهر وبلغه خلع المعتمد فصنع ما أمره به أبوه"⁽²⁾. كما نُفي عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي القرطبي (ت 432هـ / 1040م) إلى بجاية. أمّا بشأن سبب النفي فنستعين برواية ابن بشكوال (ت 578هـ / 1183م) للوقوف على حقيقته، حيث يقول: "وكان سبب هذا أنّ مجاهدا (الموفق) صاحب دانية قدم هذا المعيطي أن يكون أمير المؤمنين بعمله، فبقي مدة يسيرة ثم خلعه مجاهد عن إمرة المؤمنين ونفاه من عمله وسار بأرض كتامة لا يرفع للدينا رأسا"⁽³⁾.

كما يُطلعنا ابن الأثير بين ثانيا الترجمة التي أفردها بشخصية المهدي ابن تومرت (515-524هـ / 1121-1130م) أنّ الأخير تعرّض إلى عملية نفي، حيث بعدما حطّ رحاله في بجاية قادما من بلاد المشرق يُعَيَّر المنكر ويُزِيله؛ أخرج "منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة"⁽⁴⁾. ويُفيدنا في ذات السياق صاحب "الديباج المذهب" برواية مفادها: أنّ أبا محمد عبد الحق الأزدي الفقيه الاشيلي المعروف بابن الخراط توفي ببجاية مغربا عن وطنه اشبيلية بعد محنة نالته من قبل الولاة بها في ربيع الثاني من سنة 581هـ / 1185م على اثر الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة المرابطية⁽⁵⁾.

¹ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص381-382، الحداد، المرجع السابق، ص25.

² - ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص168. انظر كذلك: ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج2، تح، احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1417هـ / 1997م، ص730-731، ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص467.

³ - كما قال أيضا: أنّه بُويع له بالخلافة في شرق الأندلس، "وخطب له على المنابر الشرقية، ثمّ خلّج وصار في آخر عمره إلى أرض كتامة وتوفي بها". ابن بشكوال، الصلة، ج2، تح، ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط)، 1410هـ / 1989م، ص413، الحداد، المرجع السابق، ص161.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص196.

⁵ - ابن فرحون، المصدر السابق، ص277.

من خلال تتبعنا لجهود الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي لفرض سيطرته التامة على بلاد المغرب الأدنى كما سبق ذكره، وقفنا على أنّ أهل مدينة تونس أقدموا على نفي صاحب مدينتهم "علي بن أحمد بن خراسان" إلى بجاية تنفيذا لشرط عبد المؤمن بن علي في منحهم الأمان بعد اجتياحه بلاد المغرب الأدنى ودخوله مدينتهم سنة 554هـ / 1159م. كما أقدم ذات الخليفة الموحيدي على أمر صاحب قفصة يحيى بن تميم بن المعز بحاشيته وأهله وأفراد عائلة ابن الرند بالانتقال إلى بجاية⁽¹⁾.

أمّا مظاهر التغريب التي تمتّ على المستوى الفردي ضمن فئة النخبة العلمية، والتي كان مجال المغرب الأوسط وجهة مفضلة إذا ما حظيت بفرصة اختيار الوجهة أو منطقة رامت السلطة النفي والتغريب إليها لبعدها عن موطن المنفي أو بلاده، فإنّه وفي إطار جهود الدولة المرابطية لكبح جماح أكابر زعماء الصوفية وفقهائها الذين أبدوا مواقف معارضة لسياستها، فقد عمد قادتها إلى نهج سبيل النفي والتغريب، حيث امتحنوا عدّة شخصيات علمية بالتغريب. ومن ذلك: الفقيه المتصوف محمد بن الحسين الغرناطي المعروف بالميورقي (ت 537هـ / 1142م) الذي قرّب إلى بجاية بعد نفيه من غرناطة إلى مراكش⁽²⁾.

ثمّ إنّ من الملاحظ البارزة في هذا المضمار، أنّ القيادة السياسية بالأندلس فضّلت مجال المغرب الأوسط كفضاء ووجهة لنفي معارضيه والمتمردين على سلطانتها والمتآمرين عليها، فإلى جانب ما ذكرنا، تمّ إزعاج ونفي أبي العباس أحمد بن ذكوان (ت 413هـ / 1023م) صحبة أخويه أبي حاتم وعمر من قرطبة إلى وهران سنة 401هـ / 1011م، حين اتهم من طرف واضح الصقلي مولى آل عامر وحاجب هشام المؤيد بميله إلى البرابرة على الرغم من أنّ موقف ابن ذكوان كما يراه بعض الباحثين حيال الفتنة القرطبية كان معتدلا. كما كانت بلاد الزاب مقصد الأديب الأندلسي أبي قاسم محمد بن هانئ حين تجرّد من التدين وأبدى غلوا، كما يُجَلِّيه صاحب مصنّف البيان المغرب⁽³⁾. كما نقف في العهد الموحيدي على ملامح سياسة صارمة انتهجها خلفاء الدولة بالضرب بيد من حديد على يد كل من يعارض أو يقف موقفا معاديا ومناوئا للسلطة، ومن أولئك الذين طاهم سيف النفي وتعرّضوا للتغريب عن بلدهم: الشاعر "أبو بكر محمد بن عيسى الداني (ابن اللبانة)، الذي امتحنه الخليفة الموحيدي الناصر (595-610هـ / 1199-1213م) فالتجأ إلى بجاية. ونُفي أبو بكر محمد بن جعفر اللخمي (ت 544هـ / 1149م) إلى وهران⁽⁴⁾. كما تعرّض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الشهير بابن الأبار (ت 658هـ / 1260م) للنفي سنة 655هـ / 1251م، إذ عُزِّب إلى بجاية، وأمضى مدة نفيه في هذه الحاضرة كما فصلّ فيه صاحب كتاب عنوان الدراية: "عاطلا عن الرتب، خاليا من حلي الأدب، مشغلا بالتصنيف في فنونه"⁽⁵⁾.

7. الخاتمة:

على ضوء هذا الجهد البحثي، كان من بين أهمّ ما تمّ رصد كاستنتاجات بحثية، نُذِل بها ورقتنا البحثية هذه، ما نورد ملخصه في النقاط الموالية:

- تكشف لنا عديد الحوادث الماثلة بين أيدينا بشأن عمليات النفي التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط في الحقبة المخصصة للدراسة، عن لجوء السلطة إلى هذا الصنف من العقاب تحت ذرائع متباينة، جمعت بين سبب رأب الصدع الذي أحدثته صنوف المعارضة السياسية ومحاربة

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق، مج 9، ص 429، التجاني، المصدر السابق، ص 346، الزركشي، المصدر السابق، ص 14.

² - بوتشيش، المرجع السابق، ص 152، الحداد، المرجع السابق، ص 99.

³ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 79.

⁴ - ابن بسام: المصدر السابق، ص 666.

⁵ - الغبريني، المصدر السابق، ص 311، ص 187.

الفساد الإداري، وفي أحيان أخرى لإحداث توازن في البنية السكانية والتوزيع الجغرافي للجماعات السكانية أو في مجال السياسة التعميرية، وفي غيرها من الحالات في مسعى تكميم أفواه المعارضين من النخب العلمية والفكرية. مع الإشارة في ذات السياق، إلى أنّ مظاهر النفي والتغريب والتهمج وحتى وإن حملت في زوايا معينة منها سمة العقوبة ومظهر التعنيف والتعسف والبطش لأهداف ذاتية كعمليات الانتقام من عناصر الخصم المنهزم بين أيديها -رجل سياسة وحكم كان أو رعية- التي تصاحب في الغالب الفترات الانتقالية -قيام دولة على أعتاب أخرى- أو مظاهر الاستبداد بالحكم وسحق أشكال المعارضة ولو كانت مطالبها مشروعة من قبيل اضطهاد العلماء وتغريبهم بسبب جهرهم بالحقيقة والمنافحة عنها؛ أين يخرج سبيل النفي ونهج التغريب عن دائرة مشروعية العقاب إلى مظهر العنف والتشقي والانتقام، فإنّها لم تخل من جانب المشروعية في صنوف أخرى من جهد القائمين عليها حسبما يقتضيه السبب وتفرضه الضرورة.

- يُضاف إلى صفّ أعمال النفي والتغريب التي أنفذها رجال السُّلط المتعاقبة على حكم مجال المغرب الأوسط في حقّ المعارضين ومعالجة مظاهر الخلل التي يُحدثها من سُلّطت في حقّهم تلك العقوبات وأصدرت بشأنهم تلك الأحكام ونحوها من مسببات النفي ومظاهر التغريب، ما شهدته ذلك المجال من صنوف الحراك البشري الاضطرابي وعمليات الفرار الفردية أو الجماعية من المجالات التي شهدت مظاهر الاضطراب العسكري وعدم الاستقرار السياسي في صورة عفوية دون ضغط سلطوي أو تهجير إجباري. وهذا المظهر وإن كان يخرج عن حدود دائرة عمليات النفي والتغريب الإجباري الذي تقوم به السلطة، فإنّه في ذات الوقت يكشف -ولو بشكل محدود- عن مستويات ضعف السلطة في تطبيب صنوف الاضطراب التي يشهدها مجال حكمها، وعجزها عن فرض الأمن والطمأنينة لساكنتها على الصورة المثلى.

- من الملاحظ التي استوقفتنا عندها في دراستنا لمظاهر النفي والتغريب ببلاد المغرب الأوسط، غياب نصوص كاشفة لتفاصيل عقوبات النفي الصادرة في حق الأفراد والجماعات من طرف القيادة السياسية التي تدير شؤون الإقليم على تعاقبها على حكمه؛ من قبيل الكشف عن مدّة النفي، وهل عاد المنفي إلى موطنه الأصلي أم قضى بقية حياته في المجال الذي نُفي إليه؟ وطبيعة الحياة التي عاشها في فترة تغريبه وعلاقته بالسلطة التي تدير شؤون ذلك الإقليم هل عاش في ظروف اجتماعية مريحة أم تكبّد أثقال المعاناة؟ وهل عبّر هؤلاء المنفيين عن شوقهم لبلادهم وحينئذ للعودة إليها أم لا؟ وهل تذرّوا من أحكام النفي والتغريب والتهمج الصادرة في حقّهم أم تعايشوا معها لاسيما التي تندرج في زاوية الأحكام التعسفية والجائرة؟. وهي أسئلة تظل في حاجة ماسة إلى نص مصدري يميّط اللثام عن حقائقها، ويُجَلّي تاريخ عمليات النفي والتغريب ويكشف بشكل ملحوظ تفاصيل مجرياتهما. وهو ما نأمل أن تُكثّف الدراسات بشأنه لكشف حقائقه وجلاء مضمّناته من طرفنا أو من غيرنا.

- على الرغم من تعدّد العوامل المساهمة في لجوء القيادة السياسية بالمغرب الأوسط في الحقبة المدروسة لنهج مسلك النفي والتغريب، شكّل العامل السياسي أحد أقوى العوامل التي تصدّرت قائمة أسباب عمليات النفي والتغريب، وفاعلا محوريا في دفع القائمين على السلطة لاتخاذ مادة عقابية ولوناً تأديبيا.

- حظي عامل البعد بمكانة معتبرة ضمن المجالات المستقطبة لاهتمام القيادة السياسية لتوجيه المنفيين والمغربين إلى بساطها؛ حيث لمسنا أنّ مدن المغرب الأوسط وبالأخص بجاية كانت منطقة حاضنة لعدد الشخصيات المنفية إليها من بلاد الأندلس نظير بعد المسافة بين المجالين، بما يفي بالغرض من النفي والتغريب، ويتناغم ومقاصد النفي.

8. قائمة المصادر والمراجع:

- المصادر:

1. ابن أبي دينار محمد، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح، محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت).
2. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج1، تح، أبي الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
3. ابن الزيات يوسف، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ط2، 1997.
4. ابن بسلام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج2، تح، احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1417هـ / 1997م.
5. ابن بشكوال، الصلة، ج2، تح، ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط)، 1410هـ / 1989م.
6. ابن حوقل، النصبي: صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ط2، 1938.
7. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ / 2000م.
9. ابن صاحب الصلاة عبد الملك، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تح، عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987.
10. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح، ج-س. كولان و إ. لقي بروقنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
11. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب -قسم الموحدين- تح، محمد الكتاني، وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 1406هـ / 1985م.
12. ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1417هـ / 1996م.
13. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ت 749هـ / 1342م)، تح، دوروتياكرا فولسكي، ج4، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، (د.ط)، 1407هـ / 1986م.
14. أبو زكريا يحيى، سير الأئمة وأخبارهم، تح، إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، (د.ط)، 1399هـ / 1979م.
15. الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 1414هـ / 1994م.
16. البكري، المسالك والممالك، مج2، تح، جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ / 2003م.
17. التجاني، الرحلة، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981م.
18. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، تر، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983.
19. الدرجيني أحمد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تح، إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
20. الزركشي محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ط)، 2002.
21. الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979.
22. القلقشندي أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ / 1915م.
23. النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج28، تح، عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

24. المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح، محمد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، (د.ط)، (د.ت).
- المراجع:
25. أرشيبالد. ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط 500-1100م، ترجمة، أحمد محمد عيسى، مراجعة و تقديم، محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
26. الباروني سليمان، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج2، تح، أحمد كروم وآخرون، دار البعث، الجزائر، (د.ط)، 2002.
27. الجليلي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
28. الحداد حميد، النفي والعنف في الغرب الإسلامي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012.
29. الحريري محمد عيسى، الدولة الرسمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها و علاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160-296هـ)، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت، ط3، 1408هـ-1987م.
30. الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954.
31. المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج2، تقديم وتصحيح، محمد المليي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
32. بن عياش الطاهر، الفقهاء المالكية والسلطة الموحدية في المغرب الإسلامي 510-668هـ/1116-1269م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر، 1436هـ/2015م.
33. بورويبة رشيد وآخرون، الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1984.
34. حسن محمد، المدينة، والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة تونس، تونس، (د.ط)، 1999.
35. حسين مصطفى، دور عبد المؤمن بن علي الكومي بنشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين في المغرب الإسلامي "المغرب والأندلس 510-558هـ، أطروحة دكتوراه، جامعة الأردن، الأردن، 1993.
36. روجي إدريس، الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992.
37. زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3، منشأة المعارف، الإسكندرية، ومطبعة أطلس، القاهرة، 1990.
38. عزالدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، (د.ط)، 1403هـ/1983م.
39. عمر سليمان بوعصبانة، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان 296-626هـ/909-1229م، رسالة ماجستير، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر، 1412هـ/1992م.
40. عويس عبد الحليم، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1411هـ/1991م.
41. لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1979.
42. مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق، سعد زغلول عبد الحميد، ط 02، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ودار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 224، معجم البلدان، مج4، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1397هـ/1977م.
43. مزهودي مسعود، الإباضية في المغرب الأوسط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، (د.ط)، 1996م.